أفكار الجامعة الإسلامية في الجزائر وعودة الاتصال بالمشرق
(أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين)

طالب دكتوراه/ بلال صديقي/ جامعة وهران (1) أحمد بن بلة
إشراف أ.د/رابح لونيسي/ جامعة وهران (1) أحمد بن بلة

الملخص: تعد أفكار الجامعة الإسلامية من المواضيع الهامة التي كان لها أثر في حياة الجزائريين من الناحية الثقافية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث كانت سببا في هجرة البعض منهم إلى المشرق، ما جعل السلطات الاستعمارية الفرنسية تنظر بعين الريبة لهذا الأمر، والذي دفعها لاتخاذ إجراءات احتياطية وصلت إلى حد التعسف للحد من انتشار هذه الأفكار ومحاربتها، خاصة إذا علمنا أنها كانت تهدف إلى لم شمل المسلمين وتوحيد رايتهم والنهوض بمجتمعاتهم، غير أن هذه السياسة الفرنسية لم تثن من عزيمة الجزائريين في التفاعل مع هذه الأفكار والدعاية لها ومحاولة تجسيدها، وهو ما سنتناوله بشيء من التحليل في هذا المقال.

Abstract

Ideas of Islamic University are important topics that have had an impact in the lives of the Algerians culturally late nineteenth and early twentieth century ; Where was the cause of migration of some of them to the Orient , What made the French colonial authorities look with suspicion to this problem; that leads the latter to take precautionary measures.qnd abuse to control the spread of these ideas ,

especially if those ideas were meant to gather Muslims, uniting them and promote their communities But this French policy did not dissuade Algerians in interaction with these ideas and propaganda and an attempt to recast ,which is the subject of our analysis in this article.

تمهيد:

تُعدّ تجربة الجامعة الإسلامية كفكرة إصلاحية دعا إليها جمال الدين الأفغاني (1839_1897) تجربة متميزة وفريدة وذلك نظرا للمفعول الذي أحدثته في عديد بلدان العالم الإسلامي، غير أن هذه الفكرة ليست الأولى من نوعها على مستوى العالم الإسلامي في العصر الحديث، فقد سبقتها دعوة إصلاحية لمحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن 18م، حيث ركّزت هذه الحركة على الجانب العقدي ومحاربة الشرك والبدع والخرافات والممارسات الطرقية التي أُلصقت بالعقيدة الإسلامية، وظلت على هذا دون أن يتعدى إصلاحها إلى مجالات أخرى كالسياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة، إلى أن ظهر جمال الدين الأفغاني في النصف الثاني من القرن 19م بفكرة الجامعة الإسلامية التي اختلفت في دعوتها عن سابقتها. ومن هنا نطرح الإشكال الآتي: كيف أثرت أفكار الجامعة الإسلامية في الجزائر ؟ وتندرج تحتها بعض الإشكالات الفرعية ومنها: ما هو مضمون فكرة "الجامعة الإسلامية"؟ وكيف كان صداها وأثرها في الجزائر؟ وتكمن أهمية وأهداف هذه الدراسة في إبراز تأثر الجزائريين بأفكار الجامعة الإسلامية، ومساهمة هذه الأفكار في الحركة الإصلاحية الجزائرية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما أنها تعطينا فكرة واضحة عن التواصل بين الجزائر والعالم الإسلامي.

– شخصية جمال الدين الأفغاني:

يُعدّ جمال الدين الأفغاني من أبرز رموز الاتجاه الإصلاحي المعاصر كان ميلاده بقرية أسد أباد بأفغانستان 1839 حيث تلقى تعليمه الأول، وعندما بلغ سن الثامنة عشرة غادرها ليبدأ رحلاته الشهيرة إلى العالم الإسلامي حيث تنقل بين مختلف أقطاره واطلع على تجاربه وتعرف على علومه واستفاد من معارفه الحديثة في الهند والحجاز وتركيا ومصر حيث اطلع على نظام الأزهر وجلب انتباه المثقفين إليه [1]. دعا إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ومن أهم كتاباته "إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم"[2]

ومن المراحل الهامة في حياة الرجل فترة إقامته بمصر(1871-1879) إذ فيها قدم أثمن ما جادت به شخصيته من عطاء سواء من حيث الجانب الفكري أو النضال السياسي.مستغلا الخلفية الحضارية العريقة لها إضافة إلى إمكانياتها البشرية والاقتصادية والسياسية، فضلا عما تحظى به من مكانة في وجدانه فقد تحدث عنها قائلا : " إنها باب الحرمين ...وإن مسألتها أهم ما في المسألة الشرقية .....وهي أحب بلاد الله إلي."[3]

تتلمذ على يده مفكرون كبار وتأثروا به على غرار محمد عبده، هذا الأخير الذي تحدث عن أستاذه قائلا: "إنه أعطاني حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم والأولياء والقديسين.....وإنني أوتيت من لدنه حكمة أقلب بها القلوب وأعقل بها العقول.". كما وصفه جورجي زيدان بأنه: "قطب من أقطاب الفلسفة، وعاش ركنا من أركان السياسة.....وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال".[4]

أما عن فكره فقد ركز على فكرة الجامعة الإسلامية كسبيل للخروج من سيطرة الاستعمار وبذل من أجلها الكثير وراسل للتعريف بها عديد الشخصيات والأمراء والملوك ومما كتبه في الدعوة لها ما يلي: "واعتصموا بحبال الرابطة الدينية، التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها الشرقي بالغربي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي... وقامت لهم مقام الرابطة النسبية"[5]

***الجامعة الإسلامية:**

هي حركة تدعو إلى التضامن بين المسلمين من أجل تحقيق الوحدة ومواجهة التوسع الاستعماري الأوروبي،كما أنها تمثل دائرة انتماء عقائدي وحضاري وسياسي للمسلمين جميعا باختلاف أقطارهم وأعراقهم تعتمد وسائل عدة منها: الإصلاح الديني والاجتماعي عن طريق تمجيد العقل والعودة إلى مذهب السلف والعهد النبوي وقد ظهرت في الربع الأخير من القرن 19م[6]

وأصحاب هذه الفكرة أو دعاتها هم جمال الدين الأفغاني ثم محمد عبده[7] ورشيد رضا[8] وقد تحمس لها على المستوى الرسمي في الدولة العثمانية السلطان عبد الحميد الثاني(1876_1908)[9]

ومن بين المبادئ والأسس التي قامت عليها فكرة الجامعة ما يلي[10]:

1- أهمية الوازع الديني عند المسلمين الذي يعتبر أساس في مقاومتهم للاستعمار الغربي، فلا يمكن لأي أيديولوجية شرقية أو غربية أن تقدر على ذلك ولا حتى لقدرة عصبية عرقية.

2- الوحدة الإسلامية هي الطريق الوحيد لمقاومة الغزو الغربي باعتبار المسلمين أهل عقيدة واحدة، وهو ما يجعل منهم جسما واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

3- الشروع في إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية للدول الإسلامية، التي لطالما جربت طرقا بالية وتمسكت بها في تسيير شؤونها المختلفة، وألصقت تلك الطرق بالإسلام وهو منها براء. إضافة إلى تجديد الصلات الحضارية مع الغرب على أساس اقتباس كل نافع ومفيد من حضارته وعلومه.

4- تحرير ثروات العالم الإسلامي من السيطرة الاستعمارية الغربية.

5- إيقاظ الهمة في نفوس المسلمين لمقاومة الاستعمار وعدم الرضوخ له حيث يقول: "ألا أيها النائمون تيقظوا، ألا أيها الغافلون تنبهوا، يا أهل الشرف والمروءة والنخوة، ويا أولي الغيرة الدينية والحميّة الإسلامية ارفعوا رؤوسكم... هذا وقت يتقرب فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل عمل شرعي".

كما أن نظرة جمال الدين الأفغاني للخلافة[11]، أو وحدة المسلمين من الناحية السياسية تختلف عما كانت عليه في السابق فهو يسلم بعسر أو استحالة وجود قائد واحد لها يأتمر الجميع بأوامره أو ينتهون بنواهيه، بل يرى ضرورة أن يكون الإسلام هو رمز وحدة المسلمين لما يحمله من قيم ومبادئ وقد وضح ذلك قائلا: "لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في جميع الأقطار الإسلامية شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه"[12].

أما عن المحرك الأساس في هذا المشروع أو الفكرة حسب نظره فهم العلماء حيث يقول عنهم وعن مكانتهم وما ينتظر منهم: "ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة، ولا نرتاب في أن

العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف والله يهدي من يشاء ولله الأمر من قبل ومن بعد"[13].

بعد أن عرفنا بأفكار ومبادئ الجامعة الإسلامية وشخصية جمال الدين الأفغاني الداعي لها، تجدر بنا الإشارة إلى أن محمد عبده وهو أحد دعاتها، وبعد المضايقات الكبيرة التي تعرض لها إثر ثورة أحمد عرابي في مصر سنة 1881. تحول إلى رافض للعمل السياسي ولم يجعله أولوية، بل ركز على إصلاح التعليم ودعا إلى مراجعة مناهج الأزهر[14]، ثم جاء بعد هؤلاء رواد مصلحون تميزت دعوتهم بالشمولية في الطرح، ولامسوا عدة قضايا تخص المجتمع الإسلامي منطلقين من مبادئ الإسلام ومراعاة لواقع العصر، كرشيد رضا صاحب "المنار" وشكيب أرسلان صاحب فكرة القومية الإسلامية وعبد الرحمان الكواكبي المناهض للاستبداد[15]. وغيرهم من المصلحين.

ونظرا لاهتمام السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية أصبح لهذا المصطلح والفكرة بشكل عام حضور في معترك السياسة الدولية، كما كان يحدو السلطان عبد الحميد الثاني تفاؤل كبير وثقة بوحدة المسلمين وهو ما عبر عنه بقوله:" يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن لكنه سيأتي، سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون فيه قومة رجل واحد، وفيه يحطمون رقبة الكفار"[16].

كان يهدف السلطان عبد الحميد الثاني من خلال اهتمامه هذا بالفكرة إلى تحقيق عدة أهداف منها[17]:

ـ مواجهة أعداء الإسلام وخصومه المدافعين عن الثقافة الغربية، الذين توغلوا في الأجهزة الإدارية واعتلوا المناصب السيادية في البلاد العربية والإسلامية.

ـ إثبات قدرة المسلمين في أن يشكلوا كيانا سياسيا هاما ومؤثرا يحسب له حسابه، يستطيع مواجهة الغزو الفكري والثقافي والعقدي، ويكون حصنا منيعا ضد الدول الاستعمارية.

ـ إحياء منصب الخلافة ليكون أداة قوية فعلية، وليس صوريا كما ظل لفترة. و قد عبر عن هذا بقوله:" إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي، أفضل من إلقائه أرضا، وتكوين كيان غريب فكريا واجتماعيا على نفس الأرض".

يشير الصلابي إلى أن هذه الأهداف التي بيناها، هي نفسها التي أشار إليها المؤرخ البريطاني "أرنولد توينبي" حين قال:" إن السلطان عبد الحميد كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين"[18].

وقد استخدم السلطان عبد الحميد الثاني كل الإمكانات التي أتيحت له في ذلك الوقت، من أجل تحقيق هذا الشعار والتعريف به، فاتصل بالدعاة من مختلف الجنسيات في العالم الإسلامي، والبارزين في مجالات السياسة، والشخصيات التي يمكنها الذهاب والتنقل والالتقاء بالشعوب الإسلامية وفهم ما تعانيه، وإبلاغ هاته الأخيرة بتوجيهات السلطان ورغبته في نشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدراسات التي تعنى بالجانب الديني، كما قام في هذا الإطار بطبع الكتب والعناية بالمساجد والجوامع من ترميم وبناء الجديد منها، إضافة إلى القيام بحملات تبرع لبناء المساجد في العالم، كما اهتم بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية بتعليم أبناءهم في مدرسة أقيمت في عاصمة الخلافة وتدريبهم على الإدارة، ولم يغفل الجانب الإعلامي فركز على الصحف الإسلامية للدعاية لفكرة الجامعة، وعمل على إحداث نهضة علمية وتقنية في الدولة العثمانية[19].

حظيت هذه المجهودات بالتفاف عديد العلماء والدعاة حول هذا المشروع، من أمثال مصطفى كامل من مصر، وأبي الهدي الصيادي من سوريا، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبيريا، فضلا عن ملهمها جمال الدين الأفغاني[20].

يمكننا القول من خلال ما سبق بأن المشروع السياسي الذي نادى به جمال الدين الأفغاني وتحمس له السلطان عبد الحميد الثاني ومن بعده المصلحون الآخرون المتمثل في فكرة الجامعة الإسلامية، كان ذو مرجعية رئيسة وهي الدين أو الإسلام الذي أراده جامعا وموحدا بين المسلمين باختلاف بلدانهم، أعراقهم وقومياتهم.

كما ظل شعار الجامعة الإسلامية في العصر الحديث مرجعية للعديد من الدعوات والحركات التي جمعها هدف كبير وهو النهوض بالأمة الإسلامية، وذلك بالرجوع إلى الإسلام كسبيل للخروج من الحالة المتردية وحالة التخلف الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي، رغم اختلاف هذه الدعوات أو الحركات في وسائلها وتوجهاتها المذهبية وظروفها الإقليمية كالسنوسية والوهابية والحركة المهدية على سبيل المثال لا الحصر.

***صدى أفكار الجامعة الإسلامية لدى الجزائريين:**

تشير بعض الدراسات إلى أن تأثيرات الجامعة الإسلامية والحركة النهضوية الإصلاحية في المشرق العربي كانت قد وصلت الجزائر مطلع القرن العشرين[21].ومن أوائل الجزائريين الذين نادوا بضرورة الإصلاح حتى قبل ظهور تيار الجامعة الإسلامية عبد القادر المجاوي، صالح بن مهنا، سعيد بن زكري، محمد بن الخوجة وعبد الحليم بن سماية[22]. رغم أن بعضهم تخرج من مدارس حكومية فرنسية التي كانت تعنى بتكوين موظفي السلك الديني والقضائي، إلا أن هذا لم يمنع تأثرهم بأفكار خير الدين التونسي ومحمد عبده نهاية القرن 19م حيث كانوا يقرؤون عنها[23].

ومن الأحداث التي ألقت بظلالها في الجزائر وأحدثت حراكا ثقافيا ودينيا وكانت سببا مباشرا يجسد الاحتكاك بالأفكار الإصلاحية المشرقية هي زيارة محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903 وهو أحد أنصار فكرة الجامعة الإسلامية غير أن تأثيرها كان محدودا لأنه لم يتصل بالجمهور واكتفى بلقاء النخبة الذين نقلوا أفكاره فيما بعد، ومن هؤلاء نذكر عبد الحليم بن سماية وبن الموهوب وبن الخوجة[24].

وعن انطباع محمد عبده فإنه لم يكن صائبا لأنه لم يلامس حقيقة الواقع الجزائري، وهو ما عبر عنهإبراهيم بن العقون في مذكراته بقوله: "إن النظرة المتشائمة التي أخذها محمد عبده عن الجزائريين كانت بسبب عدم اتصاله بالطبقات العامة الشعبية ولا بالمثقفين ثقافة عربية إسلامية واكتفى بالاستماع إلى من قدمتهم له فرنسا ليعبروا عن ثقافتهم[25].

كما بين محمد حربي كذلك أن الأفكار الإصلاحية ك "الجامعة الإسلامية" التي ظهرت في المشرق وصلت الجزائر متأخرة، فهو يرى بأن محمد عبده حين زار الجزائر والتقى بمثقفيها، لاحظ بمرارة الجمود الثقافي لممثلي الإسلام في الجزائر، ويواصل في هذا الصدد حول تأثير الأفكار الإصلاحية ويرى بأنها لم تتجسد بشكل فعلي في الجزائر إلا في العشرينيات من القرن العشرين، ويعود الفضل في هذا إلى الشيخ عبد الحميد ابن باديس، الذي سعى فيما بعد مع ثلة من العلماء الآخرين إلى هيكلة هذا التوجه في شكل تنظيم أطلق عليه "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" سنة 1931[26]

وإذا ما عدنا إلى تأثير الزيارة فإن هذا الأمر ظل محل خلاف بين الدارسين والمؤرخين حيث يشير علي مرّاد إلى أن أثر الزيارة على الجزائريين كان مباشرا وأن أفكار الجامعة الإسلامية والإصلاح الديني قد لقيت رواجا[27]. وهو ما يختلف مع ما ذهب إليه شارل أندري جوليان من أن صدى هذه الزيارة لم يكن بالشكل الكبير[28].

أما أبو القاسم سعد الله فيرى أن أفكار الجامعة الإسلامية وصداها كان موجودا قبل زيارة محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903 وبعد زيارته كانت أفكار الجامعة الإسلامية موجودة ومنتشرة بشكل كبير في الجزائر، ويستدل على ذلك بالجريدة التي كانت تنشر آراء محمد عبده عن الشريعة والشؤون الإسلامية كـ"المغرب" في 1903 و"ذو الفقار" بعد ذلك في 1913_1914 في الجزائر العاصمة، و"الإحياء" التي كانت تُنشر بالعربية سنة 1906_1907. كما تحدث عن الإجراءات التي كانت تتخذها فرنسا للحد من أفكار الجامعة الإسلامية أو محاربتها[29].

بالرغم من هذا التضارب بشأن تأثير زيارة محمد عبده للجزائر، إلا أن ما يتفق عليه الجميع، هو وجود صدى لدعوة محمد عبده وأفكاره الإصلاحية،و أنصار لفكرته ومتأثرين بها، و هو ما عكسته الصحف والجرائد الصادرة حتى قبل زيارته، فقد كان لنشاط جمال الدين ومحمد عبده وآرائهما في الكثير من القضايا الأثر العميق على المجتمع الجزائري الذي تأثر بآرائهما التحررية.

إن هذه الضجة والحراك حول أفكار الجامعة الإسلامية في العالم الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة، يعكسان بكل تأكيد مكانة الرجل المصلح جمال الدين الأفغاني وأهمية فكرته، فهو كما يقول عنه مالك بن نبي: "هذا المصلح الذي كانت كلمته قد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها، فأحيت مواتها، ثم ألقت وراءها بذورا لفكرة بسيطة: فكرة النهوض"[30].

كما أن تبني السلطان عبد الحميد الثاني لفكرة الجامعة الإسلامية كان له كبير الأثر في تفعيل الفكرة ونشرها بالجزائر وكافة البلدان الإسلامية الأخرى، إذ أن بعض الجزائريين انخرطوا في الجمعيات الدينية التي أوجدها السلطان عبد الحميد في المدينة المنورة، كما فتحت الأبواب أمام المهاجرين الجزائريين المقيمين في المشرق وتركيا للانخراط

في لجان الجامعة الإسلامية الممثلة للمسلمين الذين كانوا تحت وطأة البلدان الأوروبية المستعمرة[31].

لم تكن السلطات الاستعمارية بمعزل عن هذه التطورات فقد أشارت صراحة إلى تأثير أفكار الجامعة الإسلامية ودورها في مقاومتي عين التركي (1901) وعين بسام (1906)، ولم يقف رد فعل السلطات الفرنسية عند حد الاتهام، بل تعداه ليشمل مجموعة من الإجراءات والاحتياطات، منها ماقام به الحاكم العام الفرنسي "جونار"، حيث أمر رؤساء العمالات الثلاثة بغلق المقاهي ونفي أوطرد وسجن كل مشتبه به من الجزائريين بهذا الخصوص، وقد تزامن هذا مع مقال نشره صحفي معتمد يدعى "أندري ميفيل" بين فيه تأثير الجامعة الإسلامية في الجزائر والمغرب ووصل إلى نتيجة مفادها أن هناك غليانا موجها من القسطنطينية والقاهرة عبر برلين[32].

وفي ذات السياق قامت السلطات الفرنسية باعتقال قبرصيين مسلمين بلغ عددهم ثمانية عشر رجلا وامرأة بتهمة الدعاية للجامعة الإسلامية في الجزائر ضد فرنسا،كانوا يتنقلون في الصحراء الجزائرية بدعوى شراء الإبل وقد حظوا باستقبال يصل إلى درجة القداسة حسب تعبير المراسل الفرنسي الذي نقل الخبر، إلى أن حقق مع هؤلاء بعد ذلك وتم إجبارهم على مغادرة الجزائر[33].

وبالرغم من التوجس الفرنسي من أفكار الجامعة الإسلامية وصداها في الجزائر إلا أن هذا لم يمنع تسرب أو دخول صحف ومنشورات معبرة عن الفكر الإصلاحي التجديدي، فمجلة "المنار"* مثلا ذات التوجه العبدوي كانت تحظى بشعبية كبيرة بين صفوف الجزائريين خاصة المثقفين منهم ثقافة عربية وكانت تمثل بالنسبة لهم لسان الإسلام ومنبر الإصلاح[34].

وبخصوص مجلة المنار وأهميتها لدى الجزائريين وخشية التضييق عليها من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية بعدم دخولها للجزائر، طالب قرّاؤها والمقبلين عليها محمد عبده بإيصال رسالة إلى المصلح رشيد رضا مفادها ألا يخوض في السياسة الفرنسية في الجزائر فتقدم على منعها من الدخول، فهي بالنسبة لهم مدد الحياة[35].

وغير بعيد عن مجال الصحف والمجلات الإصلاحية فإن مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الأفغاني مع محمد عبده في باريس كما أشرنا سابقا كانت ذات صيت وتأثير كبيرين على الجزائريين، إضافة إلى كتب محمد عبده، حتى أن بعض المثقفين الجزائريين أمثال عبد الحليم بن سماية وعبد القادر المجاوي ومحمد بن أبي شنب كانوا يدرّسون إنتاج محمد عبده الفكري لتلامذتهم لتفسير القرآن الكريم ورسالة التوحيد[36].

لم يكتف الجزائريون وخاصة المثقفون منهم بوضع المتلقي، بل بادروا إلى إنشاء وتأسيس جرائد ذات طابع إصلاحي كجريدتي "ذو الفقار" و"الفاروق" وهذا ما أعطى حيوية وحركية في أوساط الجزائريين الذين سرعان ما تجلت أفكارهم من خلال تأسيس جمعيات ونواد ومجلات ساهمت في تطور مجتمعهم ووعيه.

فظهرت بعض الصحف لكنها سرعان ما اختفت كصحيفة المنتخب ،1883 التي مولها عدد من الجزائريين من مدينة قسنطينة، وكان يشرف على إدارتها فرنسي،ودامت أشهر فقط، وظهرت كذلك جريدة "الحق" التي أصدرها جزائريون في مدينة عنابة سنة 1893. واختفت أو توقفت عن الصدور بعد مدة ، وعندما رخصت فرنسا بصدور الصحف بالعربية ظهرت محاولات وطنية عدة أخرى سرعان ما اصطدمت بالإدارة الفرنسية الرافضة لتناولها للمواضيع ذات الحس الوطني ، الملامسة للواقع الجزائري كصحيفة "عمر راسم " ذو الفقار"، التي أشرنا لها سابقا، وجريدة عمر بن قدور "الفاروق"، التي دامت وقتا طويلا لابتعادها عن القضايا الداخلية واهتماماتها

بآفاق العالم العربي والإسلامي، لكنها توقفت عن الصدور عند اندلاع الحرب العالمية الأولى[37].

ومن الملاحظ في الفترة الممتدة مابين(1900-1920) أن الجزائريين استطاعوا خلق صحافة مؤثرة كان لها الأثر في بلورة القضية الوطنية للرأي العام الجزائري، رغم عدم التكافؤ في التسهيلات والإمكانات مقارنة بالصحافة الاستعمارية، ولأهمية الإعلام والصحافة كرسالة حضارية كان للجزائريين إسهامات جديدة في هذا الجانب ككتابات عبد القادر المجاوي، والمولودين الموهوب، ومحمد بن أبي شنب، ومحمود كحول ... وغيرهم. في صحيفة المغرب الأسبوعية، التي كانت تصدر بالعربية وكان توجهها إصلاحيا إسلاميا واستمرت عقد من الزمن (1903-1913) وقد أثنى عليها الزعيم الإسلامي والمصلح المصري محمد عبده[38].

الهجرة نحو المشرق:

إن هناك أسبابا عديدة دفعت بالجزائريين إلى الهجرة أبرزها سياسة الحكم الفرنسي، الذي تميز بالقسوة والاضطهاد وعدم تقبل الجزائري، يضاف إلى ذلك انعدام الحرية وعدم وجود وسائل للتعبير وصعوبة العيش، ومما زاد الأمر تعقيدا شعور الجزائري بعدم الأمن على دينه بعدما فقده على أرضه وحريته، ما دفعه إلى التفكير في مغادرة بلده إلى بلد أخر يجد فيه ما فقده في وطنه، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو:_هل كانت هذه الأسباب هي فقط من دفعت الجزائريين إلى الهجرة؟ أم أن هناك أسبابا أخرى لا تقل أهمية عن هذه؟

يرى عدد من الباحثين والدارسين أن هناك سببا هاما يضاف إلى جملة الأسباب التي ذكرنا سابقا كان له تأثير على ظاهرة الهجرة الجزائرية وهو " أفكار الجامعة الإسلامية "، فقد وجد الجزائريون المهاجرون إلى الشرق وخصوصا الأدنى حرية وظروف

عيش أحسن من التي عايشوها في بلدهم فبعثوا بالرسائل إلى ذويهم في الجزائر يخبرونهم بذلك، كما أنه على المستوى الإعلامي اشتغلت جرائد "كالمؤيد" و"المهاجر" على الحالة الجزائرية وكانت تستنكر باسم الجامعة الإسلامية الحكم الفرنسي وممارساته على الجزائريين، حيث اعتبرته السبب الذي قاد الجزائريين إلى العبودية وأخضع الشؤون الإسلامية لسلطته وقضى على المؤسسات العربية، كما دعت في الوقت ذاته الجزائريين إلى الهجرة إلى أرض الحريات، هذا الأمر دفع بالجزائريين إلى الأمل في حياة أفضل مع إخوانهم في الشرق خصوصا مع استمرار سياسة الاضطهاد الفرنسية والتي كانت من الأسباب التي عجلت برحيلهم[39].

ولم تكن أفكارهم ونظرتهم إلى الشرق مخالفة لما وجدوه هناك، فقد حظي الجزائريون في الشرق الأدنى بمكانة وسمعة كبيرة، حيث تولوا المناصب العليا وحصلوا على امتيازات بسبب ما اشتهروا به كأنصار للجامعة الإسلامية وأبطال وقفوا ضد المستعمر الفرنسي ولم يرضوا بالتعايش معه، إضافة إلى ما للجزائريين من سمعة لدى المسيحيين في سوريا ولبنان بفضل شخصية الأمير عبد القادر أثناء إقامته في سوريا، حيث كان سببا في إنقاذ المنطقة من حرب أهلية كادت تعصف بها سنة 1860. ومن الأرقام التي يمكننا ذكرها في هذا الشأن أن عدد الجزائريين في المدن السورية فقط بلغ 3342 فردا[40].

وبالرغم من التسهيلات المقدمة للجزائريين كمنحهم الأراضي وإعفاءهم من الخدمة العسكرية وتوليهم المناصب في الجيش والإدارة والمدارس وتمثيلهم في جميع المستويات بعدد من المهندسين والأطباء والكتاب، إلا أنهم ظلوا على اتصال وثيق مع ذويهم في الجزائر، مساهمين بذلك في نشر أفكار الجامعة الإسلامية وتعزيز الروح الوطنية، وظل عدد كبير منهم يتجمع حول الشيخ "محمد عبده"وغيره من زعماء

الإصلاح والجامعة الإسلامية، واستغل الجزائريون اتصالاتهم و أحاديثهم للتهجم على السياسة الفرنسية في الجزائر وفضحها، ما دفع الفرنسيين إلى وقف الهجرة وغلق الحدود بعد 1911 لفترة معينة، وأحدثوا دعاية مضادة عبر صحافتهم ك "الأخبار" و "المبشر" على الجامعة الإسلامية، هاتان الصحيفتان اللتان حاولتا إظهار فرنسا على أنها أمة إسلامية، كما حاولتا إعطاء صورة بائسة عن أحوال المهاجرين في الشرق الأدنى، إضافة إلى صدور صحيفة حملت اسم "فرنسا الإسلامية" سنة 1913. كل هذا ضمن مخطط الدعاية المضادة التي حاولت طمس الحقائق والحد من انتشار أفكار الجامعة الإسلامية ومحاولة استمالة الجزائريين لصالح فرنسا[41].

خاتمة

من خلال ما سبق يمكننا الوصول إلى مجموعة من الاستنتاجات حول هذا الموضوع تمثلت فيما يلي:

أن المصلح جمال الدين الأفغاني يعد الملهم الأبرز والحامل للواء الجامعة كمشروع إسلامي، على الرغم من وجود من سبقه في هذا التصور ولو لم يحمل ذات الاسم كما بينا سابقا، إلا أن أفكار سابقيه لم تطرح وتنضج بالشكل الذي ظهر به مشروع الجامعة الإسلامية معه.

تعتبر فكرة الجامعة الإسلامية مرجعية لعدد من الحركات والدعوات الإصلاحية التي ظهرت في العصر الحديث، خاصة إذا علمنا أنها تشترك في الهدف، الذي تنشده وهو إنهاض الأمة وإخراجها من الحالة المتردية التي تعيشها، وذلك بالرجوع إلى الإسلام الصحيح وتمجيد العقل.

يعد السلطان عبد الحميد الثاني، أحد أهم الساسة الكبار الذين تفاعلوا بجدية مع أفكار الجامعة الإسلامية، وتحويلها إلى مشروع حقيقي، تجلى وتمظهر في كثير من البلدان الإسلامية، وفي عديد المحطات والأحداث التاريخية.

تعد زيارة المصلح والمفكر "محمد عبده" إلى الجزائر، على الرغم من الخلاف الذي ظل قائما حول مدى تأثيرها، حدثا هاما، ألقى بظلاله على الحالة الثقافية التي كانت تعيشها الجزائر، وأحدث حراكا ثقافيا على مستوى النخب التي التقت به.

ليس هناك كبير اختلاف بين أفكار الشيخ محمد عبده وأستاذه الأفغاني فيما يتعلق بفكرة الجامعة الإسلامية التي ساهم في صياغتها فيما كتب من مقالات بمجلة العروة الوثقى، فكلاهما كان يدعو إلى توثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية، والتخلص من المستبدين الظالمين وتأسيس الحياة الاجتماعية على أساس أصول الإسلام الأولى. إلا أن الشيء الذي تغير هو ابتعاد محمد عبده عن الخوض في السياسة بعد ما تعرض له من مضايقات جراء مشاركته في ثورة أحمد عرابي.

عانى الجزائريون من عزلة لبعض الوقت، سرعان ماانقضت بفضل جهود نخبة ومثقفين كان لهم الفضل في بعث نهضة فكرية وثقافية، مهدت لعودة الاتصال بالمشرق، أمثال عبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية وغيرهم.

حظي الجزائريون باهتمام كبير ضمن هذا المشروع المتمثل في الجامعة الإسلامية، وذلك لعدة أسباب منها بطولاتهم وتضحياتهم ضد الاستعمار الفرنسي التي لاقت إعجاب وتقدير إخوانهم في المشرق، ضف إلى ذلك الحماسة التي أبدوها في مناصرة هذه الأفكار والدعوة إليها.

كان التوجس والخوف من أفكار الجامعة الإسلامية واضحا لدى السلطات الفرنسية، وهو ما ظهر جليا من حين لآخر، تارة بعدم السماح بدخول بعض الصحف، وتارة باتهامات واعتقالات ونفي لأصحاب فكرة الجامعة، وتارة أخرى باتهام دعاتها أو أصحابها بالضلوع في تعد أفكار الجامعة الإسلامية سببا مباشرا في هجرة العديد من الجزائريين إلى المشرق، وتفاعلهم معها هناك، وبالرغم من هذا ظلت قضيتهم الوطنية شغلهم الشاغل، ولم تنسهم الظروف الجيدة التي عاشوا فيها هناك مواصلة النضال والدفاع عن وطنهم.

الهوامش

[1]– محمد عبده، الثائر جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة (الجزائر)، دون تاريخ، ص 16.

[2]– عبد الكريم بوصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الطبعة الأولى، دار البعث، الجزائر، 1981، ص 60.

[3]– محمد عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، الطبعة الثانية، دار الشروق، 1988م، ص27_28.

[4]– نفسه، ص89.

[5]– محمد عمارة، المرجع السابق، ص 119.

[6]–خيثر عبدالنور وآخرون، منطلقات وأسس في الحركة الوطنية الجزائرية1830_1954، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954. الجزائر، 2007، ص87.

[7] – محمد عبده: (1849_1905) من أشهر رموز الإصلاح في التاريخ المعاصر ولد بمصر في منطقة فلاحية درس بالأزهر الشريف والتقى بجمال الدين الأفغاني وتأثر به وبمنهجه الثوري في

السياسة، نال شهادة العالمية سنة 1877، واشتغل في دار العلوم وفي الصحافة كما عمل بالأهرام، والوقائع المصرية مع سعد زغلول، وجهت له دعوة بعد نفيه إلى بيروت من طرف جمال الدين الأفغاني إلى فرنسا حيث أسس معه جريدة "العروة الوثقى" إلى أن حدث خلاف بينهما في الأولويات الواجب اتباعها في الإصلاح والسياسة وهو ما أشرنا له في هذا المقال.

[8] – رشيد رضا: ولد في لبنان من أسرة شريفة سنة 1865م، يعتبر أحد رموز الحركة الإصلاحية في الوطن العربي والإسلامي،تأثر في مرحلة من حياته بالأفكار الصوفية على الطريقة النقشبندية، لكنه لم يلبث أن تخلى عنها بعد أن لاحظ طغيان الدروشة عليها،فوجه لها عدة انتقادات، ثم بعد ذلك اقترب من الفكر السلفي، وتأثر كثيرا بابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب.وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .هاجر إلى مصر أين أسس جريدة إصلاحية شاملة (اجتماعية/دينية /ثقافية/سياسية)سماها **المنار** دعا فيها إلى الإسلام الصحيح، والى محاربة الاستبداد السياسي، والى الإصلاح التربوي،والى التنبيه إلى أخطار الحركة الصهيونية .ومن **آثاره** الفكرية :الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية–/

حقوق النساء في الإسلام –/الوحي المحمدي –/الخلافة أو الإمامة الكبرى /الوحدة الإسلامية –/ المنار والأزهر.

توفي سنة 1935م . أنظر محمد أرزقي فراد، الأفكار الإصلاحية في كتابات أبي يعلى الزواوي1866_1952، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر. ص 35.

[9]– سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1900_1930)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، الجزء الثاني، ص 113...

[10]– محمد عمارة، المرجع السابق، ص ص 121_122

[11]– **الخلافة** :مصطلح يندرج في السياسة الشرعية ومعناه –حسب تعريف الماوردي المتوفى سنة450هـ1058 /م

(–خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا).أما ابن خلدون المتوفى سنة808هـ1406/م

فقد وصفها بأنها حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة وهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا.أنظر سامي محمد الصلاحات، معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء،الطبعة الأولى، مكتبة الشروق الدولية القاهرة.2006، ص103

[12]- محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، ط01، دار الأمة، الجزائر، 1999م، ج01، ص 66.

[13]- نفسه، ص 66.

[14]- رابح لونيسي، التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف (1920_1954)، ط01، كوكب العلوم، الجزائر، 2009، ص 89.

[15]- رابح لونيسي، المرجع السابق، ص 89.

[16]- علي محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية، المكتبة العصرية، بيروت، 2012، ص 30.

[17]- نفسه، ص ص 31-32.

[18]- نفسه ص 32

[19]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 32.

[20]- نفسه، ص33

[21]- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، وزارة الثقافة، الجزائر، دون تاريخ، ج02، ص 27.

[22] -ALIMERAD, Le Réformisme musulman en Algérie 1925 à1940. Ed ELHIKEMA. pp 33 37..

[23]- Ibid, p p 33 37

[24]- رابح لونيسي، المرجع السابق، ص 90.

[25]– عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، طبعة وزارة المجاهدين ط03 ، منشورات السائحي، الجزائر، 2010، الجزء الأول الفترة الأولى 1920_1936، ص 62.

[26]– محمد حربي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، 1994، ص 116.

[27] –ALIMERAD. op. cit. p 110

[28]– شارل أندري جوليان، افريقيا الشمالية تسيير، ترجمة محمد مزالي وآخرون، الدار التونسية للنشر، 1976، ص 125.

[29]– سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 115.

[30]– مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط03، دار الفكر، 1969، ص 27.

[31]– سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص 113_114

[32]– نفسه، ص113

[33]– نفسه، ص113

[*]– أسسها الشيخ رشيد رضا في القاهرة كانت تصدر بشكل أسبوعي ثم بعد ذلك شهري كانت ذات صيت كبير في العالم الإسلامي صدر عددها الأول في مارس 1898، وتوقفت في جويلية 1935.

[34]– نفسه، ص113_114

[35]– محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 29

[36]– محمد طهاري، المرجع السابق، ص 10

[37]– جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، دراسات في المقاومة والاستعمار، الجزائر، 2009، المجلد الرابع، ص53

[38]– سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 135

[39]- سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص121_122

[40]- نفسه، ص 124_125

[41]- سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص 126_127.